

نظام الأسرة في الإسلام وأثره في بناء المجتمع الراشد

الأستاذ الدكتور أحمد علي الإمام
باحث في المعهد الأوروبي للبحوث والإفتاء



مصنوعة... وذلك حتى نحافظ على البناء الأسري الموروث من سلف الأمة، ونطوره إلى كيان اجتماعي ممتد إلى مستقبل أجيالها.

والآن أخذت القوى الأصولية المتطرفة القائمة على البغي والعدوان من تحالف (الصليبية والصهيونية) في الغرب ترسم استراتيجيتها الثقافية وفق موجة جديدة من النزعات العلمانية، وهي تستغل علاقات العولمة، وتستخدم قنوات الإعلام وشبكات المعلومات، والمستهدف الأول هو الأسرة المسلمة... ذلك بأن شريعة

إنّ هذه دراسة موجزة تتلمس مواطن الاستهداف التخريبي للأسرة المسلمة في مخطط الصهيونية وما اتصل بها من (الماسونية) ونحوها تارة باسم العلمانية، وتارة تحت عنوان العولمة، كما تتلمس مكامن القوة في الأسرة المسلمة، وهي مستمدة من قيم الدين وأعراف الأمة الأمرة بالمعروف والناهية عن المنكر، مكوّنّة الحصن الدفاعي في وجه الصدام المفتعل بين الحضارات، وهو يدخل في إطار الاستراتيجيات المخططة، ويصدر في شكل مبادرات مفروضة لإصلاحات

سيداو، وإلى تغريب الحياة الاجتماعية عن طريق تغريب مناهج التعليم... هذا فضلاً عن تركيز التأثير التغريبي على الحياة الاجتماعية والأسرية من خلال البث الفضائي الإعلامي والشبكي.

أولاً: مصادر القوة في الأسرة المسلمة: هذه معالجة إبداعية، تقدم تصوراً نموذجياً عاماً لحياة فرد مسلم، في أسرة مسلمة... في مجتمع مسلم، وذلك منذ أن يستهل الوليد صارخاً حتى يسلم الروح بارئها، لنرى كيف شكّلت هذه الأسرة شخصيته السوية، وأشربته السلوك القويم والمزاج السليم... ولنرى أيضاً كيف استطاع أن يكون هذا الفرد، عند تكوينه أسرته الخاصة به، ناقلاً أميناً، بالأسوة والقدوة، لما توارثه من جيل أبويه إلى جيل أولاده من هذه القيم السلوكية، ثم كيف انداحت منه كرائم الطباع وأصائل الشمائل إلى بيئته المحيطة وجواره الطيب.... وذلك لإثبات أن الأسرة المسلمة بحق هي مدرسة تربية تتناقل منظومة القيم

الأسرة، بقواعدها القانونية والأخلاقية، على خلاف ظنهم السالف بها قد أثبتت أنها مرتكز القوة في التحصين الاجتماعي، وخط الدفاع الأول لمقاومة الغزو الثقافي...

ورغمًا عن كل ذلك، فإن الأسرة المسلمة قد أخذت تتصاعد بتدينها الأصيل إلى أفق جديد من تطلع أجيالها إلى تحكيم الدين في نظم الدولة ومناهج الحياة العامة، ومن تزود طلائعها بقوته الدافعة في مقاومة موجات الاحتلال والاستتباع المتلاحقة المتجددة... فأدركت هذه القوى المعادية لهذا الدين أن الأسرة المسلمة هي المحيط الحيوي الذي يجري من خلاله توارث القيم الدينية بين الأجيال. ولذلك صارت الأسرة المسلمة الآن هي بؤرة الاستهداف ونقطة الاختراق، وبصورة مباشرة مؤثرة، وقد تحول المخطط التخريبي ذي الوجه الإصلاحية الخادع إلى تغيير شريعة الأسرة بصكوك دولية، كاتفاقية

الجيني من حالة أمه العابدة الذاكرة
﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾
الرعد: ٢٨، ذلك بأنها تعيش في كنف
حياة زوجية آمنة مطمئنة، تتبادل فيها
مع زوجها نعمة السكينة، وتتقاسم
وشائج المودة والرحمة ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ
أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا
إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الروم: ٢١،
فهما ينقلان إلى مولودهما صحتهما
النفسية من خلال ما يمدانه به من
جينات وراثية هي من آيات الله المبدع
الخلق...

وقد كانت هذه الحالة النفسية
الهادئة الوداعة نتاجاً طبيعياً لزواج هو
من مبتدئه قويم القواعد، سليم البنيان...
فاختيار الزوجين بعضهما لبعض كان
بإرادة حرة مستقلة، ليس فيها ظل
لإكراه، وذلك لما يسود في المجتمع
والأسرة من ثقافة إسلامية منها الأمر
النبوي (لَا تُنْكَحُ الْأَيِّمُ حَتَّى تُسْتَأْمَرَ،
وَلَا تُنْكَحُ الْبِكْرُ حَتَّى تُسْتَأْذَنَ). قالوا:

الفاضلة بين أجيالها بقوة ذاتية مسنودة
بفطرة سليمة.

وهذه المعالجة مهداة إلى علماء
علم النفس التربوي في الغرب، ليروا
معنا كيف تكون الأسرة الصالحة
صمام أمان لحياة إنسانية صالحة،
وكيف أن الإسلام منهاج حياة حضارية
متقدمة، مركزيته التربية الأسرية القويمة
المستقيمة.

فإلى معالم هذه الحياة الفردية
والأسرية المتصورة، وهي تقوم على
تعاليم الإسلام الهادية المهتدية... وهو
تصور يسنده الواقع بما ظلت تحتفظ به
المجتمعات المسلمة من حصانة ذاتية
في وجه التغريب الثقافي.

1- صحة المولود النفسية:

يستقبل المولود الحياة بسماع أذان
الصلاة، يرفعه في أذنه أحد أبويه، أو
من رآياه صالحاً، حتى تقرر في إدراكه
الباطن حرمة الشعائر، وحتى تعود
نفسه الطمأنينة بعد صرخة الميلاد...
وهي الطمأنينة التي اكتسبها في طوره

في ظل المعاشرة بالمعروف والمعاملة بالإحسان... فمن الثقافة القرآنية التي تشربها الأسرة المسلمة ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ البقرة: ٢٢٨، ومن الثقافة النبوية أيضاً حسن العشرة: (خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي).

وهكذا يخرج هذا الوليد في محضن أسري سليم البناء التكويني، مكتمل الصحة النفسية، فتنقل إليه استقامة السلوك ميراثاً واكتساباً.

2- صحة المولود الجسدية: أما

مورثات الصحة الجسدية التي يتمتع بها هذا المولود فمصادرها عديدة، منها إنفاق معيشي كافٍ تنال منه الأم حاجتها، وراحة بدنية ضرورية تعينها على وهن حملها، والنفقة والراحة حق شرعي لها وبرٌّ وإحسان بها تعزبه الأسرة المسلمة وهي لا تفتأ تتواصى بوصية النبي المعصوم عليه الصلاة والسلام، في خطبته بحجة الوداع (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَإِذَا

يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ إِذْنُهَا؟ قَالَ: (أَنْ تَسْكُتَ). ومنها التوجيه النبوي (لا تحملوا النساء على ما يكرهن).

وقد انبنت حرية الاختيار على حسن الاختيار، بأن تكون الزوجة ذات دين وأن يكون الزوج مرضي الدين، فالأسرة المسلمة من ثقافتها الإرشاد النبوي (تُنكِحُ الْمَرْأَةَ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ). كما أن من ثقافتها التوجيه النبوي: (إِذَا خُطِبَ إِلَيْكُمْ مِنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَرُجُوهُ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِضٌ)...

وهو، من قبل، زواج مبرور الخيرة، ميسور المؤونة، فإن من المبشرات النبوية ببركة الزواج التي تبتغيه الأسرة المسلمة ما يحيط بشأنه من تيسير: (إِنَّ مِنْ يُمْنِ الْمَرْأَةِ: تَيْسِيرَ خُطْبَتِهَا، وَتَيْسِيرَ صَدَاقِهَا، وَتَيْسِيرَ رَحِمِهَا) وعقد الزواج نفسه ينطوي على كثير من مقاصد الدين، ومنها إقامة العدل في الحقوق والواجبات بين الزوجين

ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لُمْسِرُونَ ﴿٣٢﴾
ومن هاهنا يجيء منع الإجهاض، إلا لضرورة ملحة هي إحياء نفس أخرى أولى بالحياة، وهي الأم الحبلى الذي يتهدد استمرار الحمل حياتها...

وببدأ توفير الضمانات لحياة المولود السليمة في الأسرة المسلمة منذ تفضيل التباعد في الأنساب لدى التزوج... وذلك تجنباً لانتقال الأمراض الوراثية من جهة، وتوخياً لاكتساب التنوع في الخصائص الأسرية من جهة أخرى... ويتلو التباعد في الأنساب بين الزوجين التباعد في الولادات جراء اختيارهما الرضاعة لحولين كاملين، حتى لقد صار التوجيه القرآني في ذلك عرفاً سائداً لدى الأسرة المسلمة ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةُ﴾
البقرة: ٢٣٣، فالرضاعة الكافية عافية للطفل السابق، وعافية للطفل اللاحق، وعافية لأمهما الرؤوم... ثم هي مصدر

شَهِدَ أَمْرًا فَلْيَتَكَلَّمْ بِخَيْرٍ أَوْ لَيْسَ كُتْ وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضَلْعٍ وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ إِنَّ ذَهَبَتْ تَقِيمُهُ كَسَرَتْهُ وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا).

أما صحة الجنين التي ورثها المولود فهي من حق الحياة الذي كفله الاسلام لأي نفس مطلقاً، ومن باب أولى حياة الجنين التي تحتاج إلى رعاية أكبر وهي في طور التكوين... فالأسرة المسلمة، ومن ورائها المجتمع المسلم، تتمثل في عرفها ثقافة (الحياة) في قمة يتقاصر دونها حق الحياة في الصكوك الدولية كافة، ففي هذه الثقافة أن قتل النفس الواحدة بغير حق كأنه قتل للنوع البشري بأسره، وإحياءها كإحيائه كما قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ

يتزعزع فيها الطفل بيئة مؤتمرة بالعدل والإحسان، وبخاصة بين ذوي القربى، وأولاهم الطفل. فهي بيئة صالحة تعرف للطفل من الحقوق الشرعية ما يرقى إلى الحرمات الدينية... فكما هي تنتظر من الصغير توقيير الكبير، فإنها تطالب الكبير برحمة الصغير (ليس منّا من لم يرحم صغيرنا ولم يُوقر كبيرنا). ومن الحرمات التي يحظى الطفل برعاية الأسرة لها إقامتها العدل بينه وبين إخوانه وأخواته، مسترشدة في ذلك بالإرشاد النبوي: (اتَّقُوا اللَّهَ وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ)... فالعدل بين الأطفال من تقوى الله تعالى... ومن حرمات الطفل أيضاً نسبته إلى أبويه، كما هو الأمر القرآني ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَنُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوْلَاكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَٰكِنْ مَّا نَعْمَدْتُمْ فُلُوكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ الأحزاب: ٥، ومن هذه الحرمات ضمان أسرته له حد الكفاية المعيشية، وإنباته النبات الحسن،

استقرار عاطفي للوليد جراء ضمه إلى دواء صدرها، ولمسه بحنو أناملها... وهكذا تكون الأمومة المأمونة وتكون الطفولة السليمة، وهما محاطتان برعاية الدين وعناية الأسرة المتدنية.

3- نشأة الطفل الفطرية: وينشأ

الطفل على الفطرة التي ولد عليها (مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ). فأبواه يقيمانه على دين الفطرة، وهو الإسلام، ويجعلانه على حالة الفطرة، كما وجهت إليها السنة النبوية، من حسن تسميته، ومن ختانه، ومن تدريبه على طهارة بدنه ونظافة ثوبه، ومن تمرينه على سنن الفطرة مثل الاستياك وتقليم الأظافر، ومن تحفيظه الميسور من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف في يفاعته، ومن تعويده على الصلاة والصوم في صباه، وتكون تربيته على السلوك القويم بالأسوة الحسنة من أبويه، والموعظة الحسنة من ذويه.

4- حياة الطفل من الحقوق إلى

الحرمات: والبيئة الأسرية المسلمة التي

بعبادة ربه تعالى ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿الإسراء: ٢٣ - ٢٤﴾، فهو عرفان بفضلهما ووفاء لحقهما لا بد مفضيان إلى الإحسان لذوي القربى الرحمة بأجمعهم، ثم لأفراد مجتمعة وأبناء أمته بأسرهم حيث تتسع دائرة الإحسان إلى ذوي القربى الروحية... فتقافته مستمدة من ميزان الحقوق الذي لا يجور، وهو الهدى القرآني ﴿وَأَتِذَا الْقَرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿الإسراء: ٢٦﴾... كما هو الهدى النبوي: (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُسَيِّطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَأَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ) ...

7- من عضو الأسرة الصالحة

إلى المواطن الصالح: وعضو الأسرة المسلمة قمين بأن يكون مواطناً صالحاً، حيث يتربى في هذه الأسرة على جلب النفع ودرء الضرر في تعامله

وتنشئته المنشأ العزيز، وتعليمه العلم النافع، ومن حرماته ضمان إرثه الشرعي، حتى إذا كان جنيئاً!!...

5- الشباب بين الأسرة والمجتمع:

ويشب الشاب في الأسرة المسلمة وهي بطبعها المتوارث آمرة بالمعروف من المفروضات والمروءات، ناهية عن المنكر من الرذائل والمبازل: فهذه الأسرة النقية النقية تطبعه بطابعها من غير إعنات أو إكراه، وإنما هي تحيطه برأي عام وعرف مرعي يولدان لديه الوازع الداخلي والرادع الذاتي، وبما هو أقوى من قوة الإلزام الأخلاقي... فهو يخرج للتعامل مع المجتمع، وبين جنييه مكارم أسرته وفي إهابه محامد بيته، ويسعى ليحسن تمثيلها بكل سبيل، فهو إليها منسوب ولها محسوب...

6- الشباب من صلة الرحم إلى

صلة الأمة: أما صلة الشاب بوالديه في حياة الأسرة فبر وإحسان وصحبة حليلة حميمة... وهو يتعلم منذ نعومة أظافره أن الأدب مع الوالدين مقترن

التكسُّب النافع... وهو لا يستنكف عن العمل اليدوي والخدمة البدنية، وقد تربي على فضيلة العون الذاتي في محيطه الأسري... وذلك على خلفية التَّأسي والاتباع للنبي الكريم، عليه الصلاة والتسليم، حيث روت السيدة عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ كان يقوم بخدمة بيته...

وهذه الأسرة المسلمة إنما تتكافل على أساس مشاركة أفرادها القادرين بعملهم ودخلهم في سد ضرورتها وحاجاتها... فمثل هذه النفقة الناجمة عن طلب الرزق أقرب القربات إلى الله كما هو الهدى النبوي (إن من الذنوب ذنباً لا يكفرها الصلاة ولا الصيام ولا الحج ولا العمرة، يكفرها الهموم في طلب المعيشة)

9- أسرة العفة والاستعفاف:

ويتربي الشاب في الأسرة المسلمة وهي محاطة بسياج العفة، ولذلك هو يتحلى بفضيلة الاستعفاف، حيث يهتدي بالأمر القرآني ﴿وَلْيَسْتَغْفِرِ الَّذِينَ

مع مجتمعه الصغير ومجتمعه الكبير... فالثقافة الأسرية السائدة هي أن الأحب إلى الله من الناس هو الأنفع للناس... كما هو الإرشاد النبوي (الخلق عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله)... وهو ينقل إلى المجتمع ما تشربه في أسرته من فضيلة التعاون على أداء صنائع البر وأعمال التقوى مهتدياً بما ظل يتردد في أصداء بيته من هدى قرآني، ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ المائدة: ٢...

وهو من قبيل أسري يهب لنجدة المحتاج وإغاثة الملهوف ونصرة المظلوم، لأنها هي تعاليم دينه التي رضع لبانها من بيئة صالحة... وهو يبدأ أعمال البر بجاره ذي الجنب حتى يبلغ الأبعد من أبناء أمته ووطنه...

8- أسرة التعلم والتكسُّب:

ولأنه تربي في الأسرة المسلمة على أكل الحلال وغذّي من حلال، فإنه شغوف بالتعلم النافع حتى يهيئ لنفسه

باراً بوالديه صار أولاده بارين به.
﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾
الرحمن: ٦٠، وهو كما كان مستعففاً
صار أولاده مستعفين، فالخصائص
السلوكية كالخصائص البدنية تنتقل بين
الأجيال الأسرية من خلال التوارث
والتعايش...

وهو كما تغذى في الطفولة من
الكسب الحلال، غذى أولاده من هذا
المورد الطاهر... وقد أعان أولاده على
جادة الحق بما ضربه لهم من الأسوة
الحسنة في خاصة نفسه، وذلك كما
كان منهج أبويه معه في طفولته وشبابه،
وقد أفلح المنهج وآتى أكله...

وعندما يتقدم به العمر، ويشد
به العجز، يكفله أولاده، ويحيطونه
بالرعاية الحانية والعناية الحاذبة، هم
وحفدته، حتى يبلغ مثواه الأخير،
قريب العين... فالأسرة المسلمة رحيمة
بالمسنين حليلة مع المعاقين، فهي
كما ترحم الصغار توقر الكبار، يتلو
في كتاب الله تعالى ما يأمره بالإحسان

لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾
النور: ٣٣، وهو يستعين بصوم التطوع
على استدامة استغفاه، مستجيباً
للنداء النبوي: (يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ
اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ
أَغْضُ لِلْبَصَرِ وَأَخْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ
لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ
وِجَاءٌ)...

وقد تعلم من التربية الأسرية غض
البصر وحفظ الفرج، كما تعلم منها
الإحصان بالزواج، وهو في إقدامه عليه
يتمثل ما توارثه عن أبويه من حسن
اختيار للشريك، ومن حسن عشرته،
ومن تمثل السكينة وتبادل المودة
والرحمة معه، حتى يستديم إحصانه
وإعفاه لآخر العمر.

10- عمر عامر في أسرة عامرة:

ويمتد العمر بالشاب، وهو قد كوّن
أسرته الخاصة به، يورثها ما توارثه عن
أسرته الممتدة وعائلته الكبيرة، من قيم
الدين وأعراف الأمة... فهو كما أدى
إليه أبواه حقوق التربية صار هو يؤدي
هذه الحقوق لأولاده... وهو كما كان

بوالدين ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا
إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ
الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ
لَهُمَا أَفِي وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا
كَرِيمًا ﴿الإسراء: ٢٣﴾

هذه هي القيم العليا للأسرة المسلمة
تتشربها وتتوارثها وتنقلها، وتحافظ
عليها لأنها عصمة دينها وعروة تدينها.

ثانياً: الأسرة المسلمة مدرسة سياسية واقتصادية واجتماعية:

والأسرة هي المحيط الحيوي الذي
تتفتح عليه عيون الناشئة، وهم في
المرحلة العمرية المبكرة المعروفة
بالمقدرة الفاعلة على التلقي بلسان
القدوة. والأسرة المسلمة بخاصة توفر
للناشئة الأجواء السليمة التي يتربون
فيها على قيم الحق والعدل... فهي
مدرسة سياسية واقتصادية واجتماعية
تخرج الأجيال ليكونوا مواطنين
صالحين نافعين ناضجين...

ففي المحيط الأسري تغرس قيم
الشورى من حيث هي منهاج للحياة

الخاصة قبل أن تكون منهاجاً للحياة
العامة. فالزوج والزوجة يتحاوران
ويتشاوران في إدارة الأسرة، بل هما
يمارسون الشورى في أخص الشؤون
حول فطام الطفل ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا
عَنْ رَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾
البقرة: ٢٣٣، وللصبيان حظ من هذه
الشورى فقد كان الخليفة الراشد الثاني
عمر بن الخطاب رضي عنه يستشير
الصبيان لما يتوسم فيهم من نجابة
الرأي وفطرية التفكير... وفي هذا
يخرج الناشئ وهو مطبوع على قيم
الشورى والمشاركة...

وتعلم الأسرة المسلمة ناشئها
المبادئ الأولية للاقتصاد، وهم يطلعون
على ميزانية الأسرة، ويشاركون في
اقتصاد المعيشة، وربما شاركوا في
زيادة الدخل بالعمل المنزلي المنتج،
أو بالعمل الحقلية النافع إن كانوا
من سكان الريف، أو بالعمل العام
المجدي إن كانوا من سكان المدينة.
وهم يتلقون من الثقافة الإسلامية قيمة

(المسمى الاستعمار) بين تعليم (مدني) عام وتعليم (ديني) خاص، مع أن الإسلام لا يعترف بهذه الثنائية، فهو منهاج متكامل يدخل في كل شؤون الحياة فيوجهها بأحكامه ومقاصده، ومن ذلك التعليم، ومن هاهنا تقوم في بلادنا حركة التأصيل لمناهج التعليم لإزالة الانفصام في تربية الناشئة.

ورغمًا عن ذلك ظل التعليم الديني في (الخلاوي) المعروفة في بعض أجزاء العالم الإسلامي بالمحاضر أو الكتابات والمعاهد (الدينية) وهي تحفظ لهذه الأمة ثقافتها الإسلامية في وجه حملات التغريب... وظلت (خلاوي) القرآن الكريم بخاصة ترفد المجتمعات المحلية والأسرة المسلمة بقيم السلوك الإسلامي الرصين التي صارت أعرافاً سائدة وتقاليد مرعية... وذلك حيث تحولت هذه المراكز القرآنية إلى منارات للعلوم ومثابات للأخلاق.

ونقتطف فيما يلي معالم ذلك

العمل... (ما أكل ابن آدم طعاماً قط خيراً من عمل يده وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده). كما جاء في التوجيه النبوي (الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة، والتودد إلى الناس نصف العقل، وحسن السؤال نصف العلم).

أما القيم الاجتماعية، من التعاون على أعمال البر والتكافل في العون الذاتي، فالمسلم يتلقاها من التربية الأسرية التي تجعل من هذه القيم قوام عيشها وضمنان حياتها. فالقرآن الكريم الذي تتلقى الأسرة تعاليمه دستوراً لحياتها يحض على التعاون النافع وينهى عن التعاون الضار ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ المائدة: ٢، وهي قاعدة أخلاقية لا معدى عنها لتمامسك الأسرة وترابط المجتمع.

ثالثاً: التعليم الديني في خدمة

الأسرة المسلمة: ونشير هنا إلى الانفصام الذي أحدثه الاستخراب

مع الإخلاص والتجرد ونكران الذات ومغالبة مطامع النفس وشهواتها... وعلماء التربية الروحية وتزكية النفوس يتناصحون فيما بينهم.

تدين المجتمع: كان ذلك المجتمع تزين صغاره البراءة وسلامة الفطرة، ويحمل ناشئه الأدب وتوقير الكبار، ويفشو بين كبارهم حب الخير للناس، والسعي في مصلحتهم، والدأب على قضاء حوائجهم ورحمة صغارهم.

ولقد كان يغلب على مجتمعنا كله، أفراداً وجماعات، إجلال القرآن العظيم وتوقير أهله، الذين كانوا حقاً قدوة الناس ومؤدبيهم والمذكرين بالله تعالى بينهم وكأنهم في عصرهم سادة الدنيا ووجهاء الدار الآخرة لدى وجدان محبيهم، حيث كان حبهم من حبهم لله تعالى وحبهم لرسوله، ويملاً وجدانهم استحضر الدار الآخرة في طلب العلم النافع والعمل الصالح.

فضل الأمهات والآباء: أما الأمهات فهن الصالحات القانتات

التأثير القوي الذي أحدثته (الخلاوي القرآنية) في حفظ الأسرة المسلمة على تدينها المطبوع من كتابنا (الخلوة والعودة والحلوة) فيما يلي:

الشيوخ والقدوة الحسنة: كان المجتمع كله يلتفت حول الخلوة؛ فكان شيخها يؤمهم في الصلاة، ويوثق فيما بينهم الصلات، ويتولى تزويجهم، ويسمي أولادهم، ويعلمهم، ويؤدبهم، ويصحبهم، عائداً مرضاهم، ومشيعاً جنازهم، أما صلواتها، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر؛ بل هو يملك حق إزالة المنكر بيده، من غير نكير عليه ولا معارض له فيما يأمر به أو ينهى عنه، ويُذكر بالله تعالى حتى يبلغ بالمجتمع طهارة المظهر العام، مع نقاء السريرة والاستقامة على أمر الله تعالى في ائتلاف بين المظهر والمخبر والسر والعلن.

والشيخ قد كان في موضع الأسوة والقدوة، وهو يسعى لتطبيق الفضائل التي يدعو إليها، يقترن العلم بالعمل،

بعبادته فقال: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ النساء: ٣٦. إنها الوصية الدائمة بالإحسان إلى الوالدين كما في قوله تعالى ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ الأحقاف: ١٥.

ويتواصل الشكر وتقدير الجميل للوالدين فيما حرصا عليه من ابتعائهما بولدهما للخلة لحفظ القرآن...

الأسرة وتعلم اللغة العربية:

وتعلم اللغة العربية، كتابةً وقراءةً، جنباً إلى جنب مع حفظ القرآن الكريم، في (الخلاوي) أو الكتاتيب أو المحاضر، كان خطة حكيمة، ومنهجاً قوياً، لهما دلالة قوية على اقتران اللغة العربية عامة بلغة القرآن خاصة.... بل إن المنهج التعليمي في تلك المؤسسات قد جعل تعلم اللغة العربية يجري من خلال تعلم القرآن الكريم.

وأكثر من ذلك فإن الاستزادة من تعلم اللغة العربية، بسائر علومها، هو مفتاح لا يُستغنى عنه لفهم القرآن الكريم على خير الوجوه.... ذلك بأن

الحافظات للغيب، بما حفظ الله، واللائي كنَّ يوقرن القرآن الكريم ومعلميه ومتعلميه، وأما الأجداد فكثيراً ما كانوا يتفرغون من الصوارف ومشاعل الكسب إلى لزوم المساجد والاعتكاف كلياً أو جزئياً فيها. وهم سائرون في الناس بحسن السيرة والسريرة.

والوجدان المتدين واضح الظهور جداً على الجدات، فهن في صيام بالنهار، وقيام بالليل، مع المحافظة على صلاة الضحى، وكان من حديث بعضهن أن أكثر ما يشغل بالها من مشاهد القيامة هو هول الموقف.

ولعل الحافظ للقرآن الكريم، التالي للذكر الحكيم، يجد نفسه في موضع الشكر الخالص لوالديه كما أمره الله تعالى بذلك وقرن شكر والديه بشكره: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ لقمان: ١٤، وقد اقترن الإحسان إلى الوالدين بما سبق من أمره تعالى

الإتيان بمثله، كما تمثلت معجزته العلمية في التعبير عن آيات الآفاق (الكونية) وآيات النفوس (الإنسانية) إلى حد من الإعجاز يشبع حاجات الفهم ويستوعب طاقات العلوم في كل عصر ومصر.... كل ذلك لما تمتعت به لغة القرآن الكريم العربية من خصوبة في الوسع والعمق.

ولذلك صار مندوباً أن يتعلم كل مسلم من غير العرب اللغة العربية، بالقدر الذي يتيسر له ولو القدر الضروري لقراءة القرآن الكريم في الصلوات والدعوات.... كما صار وجوباً على الدعاة المسلمين من العرب لدي تبليغهم القرآن الكريم لغير العرب أن ينقلوا معانيه المتنوعة كما تعطيها اللغة العربية، دون الترجمة الحرفية لنصوصه التي تُذهب بحقائقه ودقائقه.

وهذا المنهج يصدق كذلك على فهم الحديث النبوي الشريف، وهو صادر من أبلغ البلغاء وأفصح

القرآن الكريم موصوف هو نفسه من الله تعالى بأنه عربي لعله أن يفهمه العرب:

﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ الزخرف: ٣، ثم لينقلوا معانية إلى سائر الأمم.... ذلك بأن فهم القرآن الكريم هو مفتاح التدين السليم.

ولقد شاء الله تعالى أن تكون اللغة العربية وعاء صالحاً لحمل القرآن، كما قال شاعر النيل حافظ إبراهيم بلسان اللغة العربية:

وسعت كتاب الله وغايةً
فما ضقت عن آي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آله
وتنسيق أسماء لمخترعات
ولذلك قدر الحق تعالى لهذه اللغة
الفريدة أن تكون غنية المفردات، واسعة
التركيب، خصبة التعابير، وقد عرف
أهلها الأقدمون بالبلاغة والفصاحة
والأداء اللغوي الجزل.... وتمثلت
معجزة القرآن البيانية في عجزهم عن

البياني ووجوه الإعجاز التشريعي والعلمي في هذا الكتاب العظيم.

وقد بلغت هذه اللغة من بهائها وروائها أن أسرت ألباب الفصحاء والبلغاء من أهلها، بل ومن اتصل بها من غير أهلها، ومن غير دين أهلها، كما ذهب بعضهم إلى أن هذه اللغة العربية التي نزل بها القرآن لغة جميلة أخاذة فتّانة، وأنها لغة تخترق القلوب اختراقاً، وأنها لغة لا ينبغي أن يكون المتحدثون بها إلا ملائكة، لا بشراً.

ونحن أولى الناس احتفاءً بهذه اللغة وإعلاءً لشأنها.... ولئن كان غيرنا يري لها هذه المكانة فما ينبغي أن ننام عن هذا النور المبين.

ثم إنه قد أحسن من قال، ولعله الإمام الشافعي:

حَفِظُ اللَّغَاتِ عَلَيْنَا فَرَضَ كَفَرَضِ الصَّلَاةِ

فَلَيْسَ يُعْرِفُ دِينَ إِلَّا بِحِفْظِ اللَّغَاتِ.

خاتمة: وبعد، فإن نظام الأسرة في الإسلام، بقواعده الشرعية والأخلاقية، هو العمدة في بناء المجتمع الفاضل

الفصحاء عليه صلاة الله وسلامه، في التفسير والتفصيل لكلام الله المحكم المعجز.... فقد أوتي رسول الله صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم ومختصر اللسان وبلغ البيان، وقد أفاض الله تعالى على حديثه طلاوة القرآن الكريم، وأغدق على كلامه حلاوة الذكر الحكيم.

وهكذا تقتزن اللغة العربية بالقرآن الكريم اقتراناً موضوعياً لا فكاك منه للباحث والدارس للعلوم الإسلامية.

ولهذا يحسن أن تتعهد الأسرة المسلمة أولادها بتعليم اللغة العربية لإدراك جمالها والاتصال المباشر بالقرآن العظيم والهدي النبوي. هذا وقد نزل القرآن العظيم بلغة عربية بلغت أرفع مقامات الجمال والجلال والكمال، وحسبها ذلك شرفاً ومجداً وهو كتاب أنزله الله تعالى ليتدبر الناس آياته، ولا يتأتى ذلك من غير إتقان هذه اللغة. وعلى أهل القرآن أن يجهدوا في تعلم هذه اللغة ليدركوا أسرار الجمال

المسلمة، وللإحاطة بمقوماتها... فما أحرانا أن نزيد روابط الأسر توثيقاً، وأن نشد بنيانها، ونعلي أركانها على المنهاج القويم الذي يبلغنا سعادة الحياة الدنيا وصلاح العقبي، والله المستعان.

والمواطن الصالح... بل إن الأسرة المسلمة الناشئة على مقاصد الدين وأحكام الشريعة هي الآن خط الدفاع الأول في وجه الاستهداف العلماني الذي يتزين بالصكوك الدولية، ويتزيى بالشعارات البراقة، ويعمل وفق مخططات مدروسة لاختراق الأسرة

